علم النفس (١)

وتهذيب الافراد والشعوب

للدكتور ابرهيم ناجي

سيداتي سادتي : لا شكَّ ان علم النفس (السيكولوجيا) قد بلغ درجة عالية من الكمال حتى صار علماً قائماً بذاته . وحتى تدخَّل في كل شيء في هذا الوجود . وحتى امتزج بالعلوم الأخرى واندمج فيها فصار يشقُّ على الانسان ان يفصل أحد هذه العلوم عن الآخر . ولا بدَّ لدارس علم النفس ان يكون ملمًّا بالفلسفة . ولا بدَّ ان يكون ملمًّا بعلم وظائف الاعضاء والتشريح . وعندما يأخذ في درس المذاهب المتعددة ويتعرض للمدارس المتنوعة ، يجد أنهُ لا بدَّ لهُ من الالمام بالكيمياء والطبيعة ، ثم يجد انهُ عندما يتصدى لدراسة علم النفس الاجتماعي ، لا بدَّ له ان يلم بالمؤثرات الجغرافية ، ثم عندما يأخذ في استعراض تطور العقل الانساني استعراضاً تاريخيًّا يجب ان يلم بحوادث التاريخ الجسام ... وهكذا أيها السادة ان الذي يأخذ على عاتقه دراسة علم النفس دراسة كاملة ، يجد نفسه بعد قليل دائرة معارف تامة ما دام يريد ان يحيط بكل ما يتعلق بالنفس الانسانية ويفهم أسرارها

أضرب مثلاً لحضراتكم — على سبيل التمثيل — أسماء بعض المراجع التي استشرتها في محاضرتي الليلة : من أهم الكتب التي اطلعت عليها كتاب « السيكولوجيا والمسائل الحديثة » وهو كتاب اشترك في تأليفه جماعة من العلماء جمعهم أمناء . وطابع الكتاب يعتذر اعتذاراً لطيفاً في مقدمته ، إذ يقول إنهُ من العجيب ان يجتمع أمثالهُ ليكتبوا في التعليم والسياسة والفن ... وليس في الكتاب شيء مني بتاتاً ... ولقد راعتني مقالة الدكتور اماتويل ميلر عن الفن . فان أكبر فنان لا يستطيع ان يجاري هذا الطبيب في صحة فهمه ، وأكبر أديب يقف عند أسلوبه حائراً ... وقد تكلم الدكتور فوجل عن الزواج في هذا الكتاب ، فطرقهُ من أبواب اجتماعية بحتة ولم يتعرض لهُ من الناحية الطبية إلاَّ قليلاً

وتناول الدكتور كريتون ميلر مسألة التعليم ، فتناولها تناولاً يعجز أكبر المربين . وقد تناول كل شيء يصح ان يشمله البحث ، حتى الكلام عن مصير النشء

(١) محاضرة ألقيت في جمعية النساء المسيحيات

ومن الكتب الهامة التي أفادتني كثيراً كتاب اولاف ستابلدون وعنوانه « الفلسفة والحياة » . وهو عرض عجيب لعلم النفس والفلسفة والاجتماع والاخلاق ، والمؤلف ينتقل بالقارىء من هذا العلم الى ذاك انتقالاً يعزّ ما نلته لحضراتكم أولاً بوهو ان العلوم متشابكة متصلة الحلقات

سادتي : ما هو علم النفس ؟ تعريفه الصحيح « انهُ كيفية السلوك الانساني » . . . . Study of human behaviour . ومعنى هذا ان لعرف كيف نفكر وكيف نحب وكيف نكره ، وبفعل أي الدوافع نتحرك لنعمل ، وهل نحن آليون نتحرك تحرك (الزنبرك) أم وراء آليتنا قوة محركة وروح خفية ؟ ثم أهم من كل ذلك ، هل نحن أبناء الوسط أم الوسط نحن الذين نصنعه ؟ إن للوسط The environment منزلة عظيمة الشأن . واختلاف الآراء في أي الشيئين أصوب ، وضع الفرد كخالق للوسط ، او الوسط كمكون للفرد وبالغ به ما بلغ اليوم — إن اختلاف الآراء في هذه النقطة هو سرّ هذا النضال القائم اليوم في العالم . سرّ الحروب والويلات والاهوال . فان الذين يقومون بالحركات الاجتماعية التاريخية ويشقون للناس الطرق ويرسمون السبل ، ويبشرون المذاهب ، لم يجيئوا الى الكون اعتباطاً ، ولم يتقدموا الصفوف عرضاً او مصادفةً . قد يحدث ان الضرورات أوجدتهم ، او الدفق الاجتماعي هو الذي قذف بهم الى الأمام ، فوكّ يقول « لفرد ولف » في كتابه « بعد الطوفان » — الحوادث الجسام التي تحفز الشعوب الى التفكير ، والويل للشعوب حين تفكر — لانها في نظامها العادي قليلاً ما تلجأ الى الفكر . . . »

عندما تفكر الشعوب ، او يفكر أحد الذين اضطرتهم الحوادث الجسام للتفكير ينتمي في الحال الى إحدى المدرستين ، اللتين لا ثالث لهما . . . المدرسة الفردية ، او المدرسة الاجتماعية . المدرسة الأولى تدين بأن الفرد وحدة قائمة بذاتها ، كحبات الرمل ، كل حبة لها كيانها . . . وتتكوّن من حبات الرمل ذلك الكثيب الكبير . وأما المدرسة الثانية فتدين بأن المسألة ليست مسألة أفراد ، وانما مسألة « علاقات » ، وان الفرد ليس شيئاً قائماً بذاته ، بل جزء من كل ، كاليد في الجسم مثلاً ، هي شيء ولكن لا تنفصل عنه ، وعلى ذلك يكون الافراد كالأمواج في العباب الكبير . كل موجة لها كيانها وشكلها ، ولكنها مندمجة في الأخرى وقائمة فيها ثم هي أخيراً ذائبة في المحيط الكبير .

والواقع أيها السادة اننا لو استعرضنا الحركات الاجتماعية في الأيام الأخيرة ، لوجدناها لا تخرج عن هذا . فهناك مدرسة Laissez faire التي تبيح الحرية للافراد ينتج كلٌّ ما يريد وتقدر ما يشاء . والرأي أن الفرد عن هذا الخط يسعى الى إسعاد نفسه ورخائها ، وسيؤدي

ذلك الى اسناد المجموع . والمدرسة الثانية المدرسة المثالية ، ومنشؤها فلسفة كانت وهيجل وهي تؤكد ان المسألة كلها مسألة «علاقات» . ونحن في الحقيقة لا نعرف حقيقة الشيء الصغير الذي يبدأ نواة للحلقة الكبرى ، وانما نعرف هالة الحلقة الكبرى ونحيط بها ونؤمن ، ولذلك فهي أهم من تلك النواة الصغيرة

اما المدرسة الاولى ، فهي المدرسة التي ينبت على حرية المغامرة والكسب Enterprise فأحدثت رخاء اقتصاديًا لا شك فيه ، ولكن التفاوت بين قدرة الافراد على المغامرة المرغوبة أدى الى تكديس البؤس والشقاء ، والى وجود عاطلين لا يملكون القدرة على المغامرة

اما المدرسة الثانية ، فهي المدرسة التي كما قلت تدين بان الفرد للجماعة ، وانهُ ليس لهُ الاَّ ان يكون للجماعة ، والجماعة عيَّلَ على الارض ذلك الكل الذي ينتهي اليه كل شيء ولكنهُ حدث ان قام قوم يفسرون اقسيم روح هذه الجماعة والمتكلمين بلسانها ، والواقع ان الدافع لقيام هؤلاء الناس شيئان :

اولاً — ان النظرية التي تفرض ان الفرد ليس له قيمة الاَّ باشتباه الى المجموع ، وليس لهُ رأي الاَّ رأي المجموع التي تتحكم فيه عوامل طويلة عريقة من المؤثرات القديمة والحاضرة ، وهي تشكل هذا الفرد او ذاك — اي ان عوامل البيئة والوسط وحوادث الاجيال هي التي تصب هذا الفرد او ذاك في «القالب» الذي تريده — هذه النظرية بثت في الافراد التواكل وضعف الثقة بذاتهم وأفسحت في الوقت ذاته الى قيام نفر يفهمون هاته الحقائق ويستغلونها استغلالاً ضارًا

اقف هنا قليلاً لأتكلم عن نقطة هامة جدًا . ثم أعود الى ما بدأت . . . قلت إن نظرية المدرسة المثالية تفرض ان الانسان جزء من كل ، والنظريات التي تشبه العقل الانساني وكيف يعمل ، مشابهة لما ذكرنا . فهناك نظرية تفرض ان العقل «وحدات» او ذرات وتسمى النظرية «الذرية» . . . اي ان قوات العقل وحدات متجاورة ، تقوم كل بواجبها مع العناصر الاخرى فيما يتعلق بوظيفتها . والنظرية الثانية وهي الصحيحة هي النظرية الكيميائية او الديناميكية ، وهي التي تقول ان العقل دوافع متداخلة متفاعلة متصلة متشابكة . والعقل على هذه النظرية وحدة متماسكة فنحن مثلاً لا نحس السمع بغير النظر ولا النظر بغير السمع . والطفل لا يميز بين احساس وآخر بل ان الشيء عنده «منظور مشموم ملموس» ! فالعقل من هذه الناحية «كل» . وهنا نرون التشابه بين نظام العقل والنظام المثالي في الاجتماع

غير ان النظام الديناميكي» للعقل يفسر لنا جميع الظواهر العقلية التي تسير الناس والشعوب او هذا النظام المنسجم المتصل المتشابك ، يفسر لنا قبول العقول للايحاء Saggestion فان الايحاء هو الصفة التي يتغلغل التأثير عن طريقها في العقل ويسيطر عليه كوحدة كاملة اذ

لو كان العقل أجزاء منفصلة متجاورة لما أمكن ذلك الايحاء ، ولما أمكن أن نتصور كيف يحدث الاستذكار . وقريب من صفة الايحاء ، صفة المشابهة أو الحلول « identification » والايحاء والتشابه لهما شأن أي شأن في حياتنا المنزلية والاجتماعية . ويفسران كثيراً من النظريات التي كانت الى عهد قريب مكسوة بالتزييف والتضليل

أما في حياتنا المنزلية فان الطفل يحاول أن يشابه والديه أو يحل محلهما ، أو يكون « هما » وفي حياتنا الاجتماعية يحاول الفرد أن يشابه زعيمه أو سيده أو يكون « هو » . وهذه الصفة صفة المشابهة أو محاولة أن يكون « هو » على أتمها في الطفولة

وهي صفة يستغلها الزعماء الذين يربون الامم لأغراض سياسية أي يربون أجيالاً مطواعة . فانهم يتناولون الاطفال في احضارهم الغضة ، فيصنعون بهم ما يشاءون باستغلال الصفتين المتشابهتين ، الايحاء والمشابهة . اما بالايحاء ، فالطفل سيقبل كل ما يوحى به اليه . أما بالمشابهة فهو سيحاول ان « يتقمص » روح والده او استاذه أو زعيمه . وبعض الامم استغلت هذا الأمر في تعليم ابنائها استغلالاً سليماً فصار التاريخ يدوس على طريقة خاصة والجغرافيا على لون بعينه وهكذا

أما عندما يكبر الناس فهم لا يزالون قابلين للايحاء والمشابهة ، ولكن بقدر ضعيف ، فاذا أريد تنشئة جيل من الدين اجتازوا عهد الايحاء والمشابهة ، صعب ذلك جداً ، وأخذ مهذبو الجيل يستعملون الطرق القاسية لاكراه الناس على قبول ما يريدون . فيحدث لهم ما يسمى Mass neurosis أي الاضطراب العصبي في الجماعات ! أي أن أعصابهم تضطرب وتتقلقل وتضيع لديهم وحدة الغرض ، وينمحي من أمام عيونهم معنى الوجود . ان هذا تماماً هو ما يحدث للمريض بالاضطراب العصبي . انه يكون دائماً محيراً ، قلقاً مفككاً ... أي يعود طفلاً ... وعندما تعود الشعوب طفلة ، أي عندما لا تعرف لها معنى سامياً تلتمسه ، تبحث عمن تسلم قيادها اليه انها تبحث عنه مكرهة ، وهو يأتي اليها مختاراً ... وهذا هو السبب الثاني الذي أدى الى قيام السادة الذين ذكرتهم . ان كثيراً مما ياهي به انصار نظرية « الجنس » ويفتخرون به على أنه « بطولة » موروثة او شجاعة تشتهر بها هذا الجنس او ذاك ، لهو وهم كاذب ... حقيقة ان الوراثة لا تعد أمرا . ولكن شأنها قليل في التربية ، في المنازل او في الامم

فان الأم حين تحب طفلها على صفة ما تقول — أبوه كان كده وجده كان كده ! — ولكن الحقيقة ان هذه هي نظرية المشابهة identification التي أشرت اليها

ومثل ذلك يقال في الأمم . فهذه الامم التي تفتخر بجنسها ، وتقول نحن ابناء البطولة ونحن وحدنا نحن وحدنا فهم ما قد حدث قديماً . ولذلك يتحيزون للجنس والقومية ويدعون ان هذا الجنس أرقى من ذاك . ان ابحاث سنجمان وجلسبرج خرجت للوجود ببراهين قيمة .

فقد أجرى هذان العالمان أبحاثاً على جماجم الاجناس المختلفة ، وأجروا تجارب على الذكاء ، وتجارب على الامزجة Temperament فلم يتكروا ان تركيب الادمغة يختلف حقاً ، وعلى ذلك تختلف قوى الذكاء والادراك ، ولكن لا يصح ان يقال على الاطلاق ان هذا الشعب أذكى من ذاك ، فان المسألة ان تلافيف المخ في نموها سبقت في أمكنة وتخلفت في أخرى

اما عن مسألة الامزجة فقد أثبتا ان العالم ينقسم الى قسمين introvert و extravert وتبينا بأدلة ناصعة ان هذا ناشىء من التكوين الفيزيولوجي ، كمسألة الغدد والهرمونات ، واثبتا بعد ذلك ان هذه الصفات الجنسية ، حقيقة قد تكون ميزة لجنس عن آخر ، ولكن لا يمكن اطلاق ذلك على هداه ، ثم انهما بينا ان ميزات الامة الواحدة يمكن ان تتغير تماماً في جيل واحد ، وذكرا على سبيل التفكهة ما كان يقال عن الانكليز في القرن السادس عشر وعن فرنسا في السابع عشر من نص كتابهم فقد كانوا يصفون اهل ذلك العهد وصفاً منادياً في الرداءة . وهذا لا يمكن ان يقال عن الامم الاخرى . فتغيرت الاوضاع الآن . وصار السيد عبداً والعبد سيداً . أما عن نظرية المشابهة ، فنصيبها في حياتنا العائلية عند ما نكبر عظيم جداً في الزواج . فان الناس في الواقع لا يعرفون لماذا يتزوجون ولماذا يخفقون في الزواج

يقول فلوجل ان الناس يتزوجون لغير الامور التي يعتقدها كل شخص . فلا للتناسل ، ولا للذة الجنسية ، ولا لشيء من هذا . وإلا فما سرّ فرحة الناس بالزواج ، وما سرّ تلك الحركات التي تزف بها العرائس ، وما سر الرهبة والفرح في نفوس الناس جميعاً عند ما يشاهدون عرساً ؟

يقول فلوجل إن الاطفال في دورنا ، يعيشون في عالم من التواهي والزواجر

ويرون بأعينهم الأب والأم ممتعين بقسط كبير من الحرية . . وعندما يكبر الاطفال يرون الحرية الجنسية التي يتمتع بها الوالدان . فيتمنى الاطفال لو كانوا هم والديهم ، ليكون عندهم القدرة على الحصول على الاشياء بسهولة ، وليكون عندهم الحرية الجنسية المنشودة أي يريدون أن يكونوا « هم » . ويظل هذا الخيال الابويّ ملازماً لنا في بعد ، وهو ما نسميه المركب الأبوي Paternal Complex . فعند ما نحب : إما أن نحب وفي خيالنا ذلك المركب الأبوي ، وإما أن نحب أنفسنا أو من يشابه أنفسنا ، أو من يكبر أنفسنا

ولكننا لا نستطيع أن نفصل حب أنفسنا عن ذلك المركب الابوي . وقد ينفصل عند بعض الناس تماماً . فأما الذين يكون عندهم مزيج من المركب الابوي مع الحب « النرجسي » أي حب الذات فغالباً يفلحون في الزواج . وأما الذين عندهم المركب الأبوي فقط ، فغالباً لا يفلحون في الزواج غير عامة العطف والحنان ولذلك يخفقون كأزواج . كذلك يخفق الذي يبحث عن رفيق لا يشابه نفسه ولا يكملها بل يختلف عنها اختلافاً تاماً